أسئلة !

للأستاذ علي الطنطاوي

كان حديثَ الناس في الأسبوع الذي مضى ، وحديثَ الصحف . هذه الـ(أربعون ألف جنيه) التي تبرع بها البدراوي باشا وشهد عليه بها الشهود ، وجاءته عليها رسائل الشكر وبرقيات التهاني ، حتى إذا شبع من الثناء ، وروى من المدح ، وانتشى من الفخر ، ونال ما كان يريده من تبرعه ، ولم يبق وراءه غنم يناله ، ما بقي إلا الغرم بالـ(أربعين الف جنيه) عاد فجحد قوله ، وأنكر هبته ، وطعن على الشهود ، وكذب الناقلين ، فعاد المهنئون له يعزونه ، والمادحون إياه يهجونه ، وانطلقت الألسنة بالوقيعة فيه ، والنيل منه ، وأذهب هذا القدح لذة المدح الأول ، واشتاق إليه لما فقده ، ولكن عزّ عليه أن يشتريه بـ (أربعين الف جنيه) ، وأن يؤديها كاملة فيكذب نفسه ، ويثبت قول من شهد عليه ، فافتداها بعشرة آلاف رفعها إلى السدة الملكية ، فردتها عليه ، ولم تقبلها منه . وقالوا ، إنه سيدعى الشعب إلى اكتتاب عام يشترك فيه الغني والفقير ، يحقق به ما كان التبرع له ، وهو انشاء معمل للّقاح ، يقي الناس من هذا الوباء الذي يحصد بمنجله النفوس ، ويقطع الأعناق ، ويودي بالأسر .

***

انتهيت من قراءة هذا الخبر ، فنشأت في نفسي أسئلة كثيرة ، أحببت إذاعتها لأني أعني أن أجد مجيباً عليها :

أولها : السؤال عن هذا التفاوت العجيب بين الناس الذي صار شعار الحياة المصرية ، وآيتها ... من أين جاء ؟ وكيف تركه العلماء والمصلحون وأصحاب الرأي ، وذوو السلطان ، ينمو ويمتد حتى يصير كالدوحة العظيمة ، ولم يقطعوه وهو بعد غصن طري؟

وكيف انتهت الحال إلى أن يكون في مصر نفر من المصريين والأجانب اجتمعت في أيديهم الملايين ، وملايين من المصريين دون الأجانب فرغت أيديهم من كل شيء .

وكيف امتد هذا التفاوت إلى غير المال ؛ فكان في مصر نفر هم أكابر أدباء العربية ، ونفر هم أئمة علماء الإسلام ، ونفر هم أعلام الفلسفة والحقوق وعلوم الطبيعة ، وجماهير لا تحصى ، (إلا في دفاتر الإحصاء عند الحكومة) ، لا تعرف من العربية ولا من الإسلام ولا من هذه العلوم شيئاً ، بل هي لا تعرف القراءة ولا الكتابة ، وصارت مصر بحيث لو ذهب منها مثنا رجل فقط ، من عشرين مليوناً ، صارت زعامة مصر الثقافية ، بين الأقطار العربية ، خبراً بعد عين .

وكان في مصر ، بل في القاهرة نفسها العمارة التي تشتمل على خمس عشرة طبقة ، والأكواخ التي لا شباك لها ولا ماء فيها ولا مرحاض ، وفيها أفخم السيارات تسير بجانب عربات الكارو ، تحمل أهل القاهرة من حي إلى حي ، وفيها شارع فؤاد وشارع سليمان ، وفيها الزمالك وجاردن سيتي ، وفيها مقابل ذلك زين العابدين والدراسة وبولاق ، وفيها فندق شبرد ووراء حديقته أزقة مسدودة لا تراها الشمس ، ولا يعرمنها الهواء ، ولا ينيرها الكهرباء ، ولا تعرف الطريق إليها مصلحة التنظيم ..

إن الناس يتفاوتون في بلدنا ، وفي بلاد الناس كلها ، ففيهم الغني والفقير ، والعالم والجاهل ، وعندنا العمارات الكبيرة ، والدور الحقيرة ، ولكن المسافة بين عالينا ونازلنا قصيرة متحملة فليس في دمشق كلها عمارة كالـ(ايوبليا) ولا كنصفها ، أن أعلى عمارة فيها في ست طبقات . ولكن ليس في دمشق أيضاً ، بيوت كبيوت مصر القديمة أو عشش الترجمان ..

وعندنا فقراء ، ولكن فقراءنا لهم ثياب نظيفة تسترهم ، وأحذية تحملهم ، وبيوت تكنهم ، وعندنا مالكون للأرض ، ولكن الناس يملكون معهم ، ليسوا عبيداً لهم ، ولا اجراء عندهم ، ما عندنا هذه (الاقطاعية ...) إلا في حماة وأمثالها ، وهي مناطق محدودة ، وسائر الأرض مقسمة بين الناس ، يملك الواحد منهم ربع الفدان فما فوقه ، ولا يرى نفسه دون مالك الآلاف ، ولا يذل له ولا يرى له عليه فضلا .

لذلك يعجب الشامي عندما يقدم مصر ، ويرى هذا التفاوت فيها ، ويسأل من أين جاء ؟

وثانيها : السؤال عن الكتاب والعلماء ، لماذا لا يدعون إلى تخليص البلد من هذا الداء المياء ، وتعديل كفتي الميزان وتحقيق طبيعة العرب في المساواة ، ومقصد الإسلام في العدالة

لا أريد المساواة المطلقة التي لا تبقي غنياً ولا فقيراً ، فهذا مالا يكون ولا ترضاه سنن الكون ، ولا طبائع الأشياء . لا يكون إلا في أذهان الفلاسفة والشعراء ، وأصحاب الأغراض من الدعاة ، يشعبذون به على الناس ، ويتخذونه سلما إلى غاياتهم ، ووسيلة إلى أغراضهم ، ولكن أريد المساواة المعقولة ، التي لا ينزل بها انسان إلى منزلة البهيمية في طعامه وشرابه ومسكنه ، ولا يرتقي إنسان إلى منزلة الألوهية ، يدعيها كذباً وبهتاناً كما ادعاها فرعون من قبل ، وأن يكفل لكل مصري (مهما كانت مهنته ، وكان عمله) طعامه وشرابه وكسوته ومسكنه ، كما يليق بالانسان أن يأكل ويشرب ويلبس ويسكن ، وأن لا يترك في مصر رجل واحد ، يعيش كما تعيش السائمة ، يأكل قريباً من طعامها ، وينام مثل منامها ، في الطرقات ، والحقول ، وعلى الأرصفة ، وفي الأكواخ ؛ وأناس يطعمون كلابهم الشكولاته ، وينفقون أموالهم في المراقص ، ويذيبون ذهبهم في الكؤوس .

فما ذا يصنع العلماء والكتاب؟

وثالثها : السؤال ... إذا كان يجوز لمثلي السؤال ، عن الحكومة مالها تقر هذه الحال ، أولا ، في كثير من قوانينها وأنظمتها ، فتجعل المدارس الأولية متفاوتة الدرجات ، ولا تسوق ابن الغني وابن الفقير بعصا واحدة ، وتحشرهم في مدرسة واحدة ، كما تفعل وزارة معارفنا في الشام ؛ ومالها تعنى بالمشروعات الضخمة الكمالية ، قبل اتمام الضروري ، كأن القصد تنويع الحلوى للأغنياء ، قبل تقديم الخبز للفقراء ؟ !

وما لها لا تضع ، ثانياً ، القوانين التي تؤدي إلى إبطال هذا التفاوت ، وإلى رفع المنخفض وخفض المرتفع ، حتى تقترب الدرجتان ، وتتدانى الكفتان ، فتعمل بالإسلام في أخذ الزكاة من الأغنياء ، وردها على الفقراء ، وحينئذ تأخذ هذه الـ(أربعين ألف جنيه) قسراً بلا رجاء ولا شكر ، أو تعمل عمل الأمم الغربية ، فتكثر الضرائب على الدخل وعلى المواريث وتشرف على المعامل والشركات والمصـــارف ، ويكون لها الرأي في كل ما يمس المصلحة العامة — وهذه (اشتراكية) ليست من مبادىء الإسلام ، ولكنه لا يمنعها إن دعت إليها ضرورة ، والضرورات لها أحكام ، وتعريف الضرورة وأحكامها ، مبيّن في كتب الفقه ليس هذا موضع بيانه .

ورابعها : سؤال عقلاء مصر وقادتها ، ألا تخافون أن تأتيكم هذه الحال بالشيوعية ؟ ألا ترون بوادرها ؟ ألا تعرفون أخطارها ؟ ألا تقدرون أضرارها ؟ فلماذا تلبثون ناعمين ولهيب النار يقترب من منازلكم ، فلا يلبث أن يشعلها عليكم ، فيجعلكم فيها كالمحبوس في الجحيم ؟

إن الناس لا يقبلون على الشيوعية عن معرفة بها ، ولا عن حب لها ، ولكن دعاتها رأوا ما هم فيه ، وعلموا أنهم يتمنون أن يجدوا الخلاص منه ولو على يد الشيطان فأوهموهم أن الشيوعية هي سبيل الخلاص ، وأنها طريق السعادة وأنهم إن كانوا دعاتها ملكوا بها قصور الأغنياء ، وحقولهم وسياراتهم ، فلذلك تعصبوا لها ولا يدرون ماذا فيها ، فهم منها كما قال عبد الله بن عمر ، لمن لامه على ترك مؤازرة ابن الزبير في دعوته إلى الإصلاح : أرأيت بغلات معاوية الشهب اللاتي يحج عليهن ؟

قال : نعم. قال : ذلك ما يريد ابن الزبير !

إنهم يئسوا منكم ومن دينكم، فأوهم أنكم معنيّون بهم ، وأن دينكم لا يرضى ما هم فيه ، إن الإسلام دين العدالة ، دين المساواة ، دين الخير ، أفيرضى أن يستعبد بعض الناس بعضاً في قرن العشرين الميلادي ، وقد أنكر ذلك عمر في القرن الأول الهجري ؟

فلماذا لا تأتونهم بحق الإســـلام ، لتخلصوهم به من باطل الشيوعية ؟

أما والله إذا صار هذا البلد (لا سمح الله ولن يسمح) شيوعياً فأنتم يا أيها العقلاء ، ويا قادة الرأي ، المذنبون ، لا العامة ولا الدهماء ولا الأغرار من الشباب !

وخامسها : سؤال المصريين جميعاً ، ألم يروا هؤلاء الأجانب، أصحاب المتاجر والمعامل والمصارف لم تمتد يد منهم بقرش لرد هذا الوباء ، ومساعدة المنكوبين به ، ورفع البيوت التي هدمها ، وإطعام الأطفال التي يتمها ، والنساء اللاتي أيّمها ؟ ألم يأن لهم أن يثيبوا إلى أنهم أحق بخيرات بلادهم ؟ لا بالنهب والسلب والثورة وأخذ المال من أصحابه ، لا ما ذلك أردت ، ولا يريد هذا عاقل ، بل بأن تطرحوا عنكم ثوب الكسل ، وتشمروا عن